

## كلمة في ذكرى الاستقلال

أيها المواطنين

ما أحرانا في ذكرى الإستقلال - والقلق يحاصرنا - بوقفه تأمل وتبصر .  
قبل خمسة وأربعين عاماً حققنا الاستقلال ، وبعد خمسة وأربعين عاماً  
وجدنا أننا لم نستحقه .

رأينا في الاستقلال نهاية ، وكان يجب أن نجد فيه أيضاً بداية .  
رأينا في الاستقلال نهاية عهد عبودية وهوان ، ولم نجعل منه ، كما كان  
يجب ، بداية عهد بناء وإثراء وإصلاح .

فكان أن حققنا استقلال الدولة ، ولم نبين دولة الإستقلال .

لم نبين دولة العدل والمساواة .

لم نبين دولة القانون والمؤسسات .

لم نبين دولة التحديث والإثراء .

بنينا وطناً سقيماً إذ تعمّدنا أن تكون قوة لبنان في ضعفه .

ورحنا نتغنى بالحرية والديمقراطية .

أخذنا منها بطرف وانتشينا بغيض ما كان لنا لمجرد أن مثله لم يكن لسوانا  
في محيطنا .

فاتنا أن الحرية تحتاج إلى أحرار يمارسونها ، فلم نعتق إنساننا من ريقة

الفقر أو العصبية الطائفية أو التبعيات العشائرية أو الإقطاعية ، فبقيت الحرية أنشودة وهم نظرب لرجع أنغامها ولم تتحوّل نظاماً لحياتنا إلا في واحات محدودة من مجتمعنا .

وغاب عنا أن الديمقراطية تجربة وجودية طرقتنا بابها ولم نخض غمارها . فنحن لم نحتمك إليها في ظلاماتنا وخلافتنا فأضحت الشدائد غمطاً في حياتنا : كلما حلّت بيننا مشكلة تطورت إلى معضلة ، ثم إلى أزمة سياسية فمحنة وطنية .

لئن كانت الديمقراطية تشكل صمّام أمان لمن يمارسها ، تدرأ عنه عاديّات العواصف والمحن ، فإن لبنان لم يعرف في نظامه واقعاً من مثل ما تعرض له في تاريخه الحديث من زلازل وأعاصير ، وكان آخرها ، وأعتها ، ما نحن فيه من حال منذ انفجار المحنة الكبرى في عام ١٩٧٥ وما وصلنا إليه اليوم .

لم ندرك أن من خصائص الديمقراطية أنها تقرن الحرية والسلطة بالمسؤولية . أما في لبنان ، فقد بقيت الديمقراطية فاقدة أهم مقوماتها إذ غاب عنها عنصر المحاسبة السياسية الفاعلة . هكذا بقي رجال الأزمات هم أبطال الحلول ، وبقي رجال الماضي هم أمل المستقبل .

وأغمضنا عيوننا عن حقيقة بديية ، هي أن مبدأ تكافؤ الفرص بين أبناء الوطن الواحد هو من أقاليم الديمقراطية وهو نقيض الطائفية ، وإن الديمقراطية والطائفية تالياً ضدان لا يلتقيان . لذا فإن ديمقراطيتنا ظلّت بمثابة القشرة من غير لبّ في ظل تشبثنا بالممارسة الطائفية المترتبة في حياتنا العامة .

ويتراءى كأنما نحن نصرّ على إخفاء بصماتنا في الجريمة التي ارتكبتها ونرتكبها في حق أنفسنا وفي حق الأجيال المقبلة ، إذ نحاول الإختباء وراء التنديد بالمؤامرة أو المؤامرات ، وبدخل الآخرين فيما بيننا . ونحن بذلك ننسي أو نتناسى أن المؤامرة ، أية مؤامرة ، كما التدخلات الخارجية ، ما كانت لتعبر إلا من خلال تناقضاتنا وخلافتنا ، ونحن لم نبادر يوماً إلى تسوية ما ينشب بيننا

من خلافات ، بالحوار والتفاهم قبل استفحائها . بذلك كنا أول المتأمرين ، أو المتواطئين ، على أنفسنا ووطننا .

\*\*\*\*\*

عفوك يا لبنان .

نحتفل بمولدك مرة كل عام ، ونغتالك ألف مرة كل يوم .

قتلناك على كل منعطف تذابحنا حوله على الهوية وتخططنا ، وعلى باب كل معمل حرقنا ، وفي كل حيّ أو قرية أو بلدة هجرنا .

قتلناك إذ استعاض بعضنا بنفسه عن الشعب كله ، وبطائفته عن المجتمع كله ، وبمنطقته عن الوطن كله . ولقد وُجد بيننا من لم يتورع عن طعن الميثاق الوطني الذي وُحد شعبك ، ولم يجد غضاضة في التفريط بوحدتك ووجودك في خلاف شكلي على رئاسة فانية ، أو ربما في الشبق إليها . فالقضية قضية مصير ، أما المعركة فتكاد تكون معركة نزوات .

قتلناك إذ أهدرنا مصير الوطن باسم الوطنية ، وتنكّرنا للقيم الدينية بالممارسات الطائفية ، وهتكنا القيم الإنسانية تحت عنوان القضية . ولقد وُجد بيننا من تخلّى عن أصلاته اللبنانية العربية إذ مدّ يده إلى عدو غاصب يحتلّ أرضك ويعتدي على شعبك .

قتلناك إذ وُجد بيننا من رأى أن أمن فئته من المجتمع فوق كل اعتبار ، وما درى أن المجتمع اللبناني واحد وأن أمنه كلّ لا يتجزأ .

قتلناك فلم تمت ، ولن تموت ، لأنك أكبر من أيّ منّا ، ومنّا جميعاً ، وأبقى . . . لأنك لست ملكاً لنا . . . لست ملكاً لجليل فهِم الوطن وجعل منه مزرعة أو مزارع . . . ولا لجيل عرّك فيك الحاضر المشؤوم ولم يُبصر فيك الوعد الزاخر والمستقبل المشرق .

\*\*\*

لبنان يعيش اليوم في خطر الإنقسام والتداعي وهو يبحث عن اسم رئيسه العتيب . ويوم يطلع الاسم علينا بعد طول مخاض سيكون من حقنا أن نتساءل : أهذا من كانت المغامرة بوحدة لبنان ووجوده من أجل اكتشافه ؟ أما كان ممكناً أن نعثر على هذه الدرّة اليتيمة من غير كل هذا العناء ؟

قد يقال لنا إن هذا الثمن الغالي الذي يدفعه العباد ليس ثمن الرجل وإنما هو ثمن وحدة لبنان ومستقبله .

عجباً . . . ما الذي يجعل من ذلك الرجل ، أياً يكن ، ومهما بلغ شأوه من العظمة ، في منزلة الكفيل لوحدة لبنان ومستقبله ، وما الذي يجعل انتخابه شرطاً لاستمرار وجود هذا الوطن ؟ ولقد كان هذا الوطن قبله ، فلماذا لا يكون اليوم بدونه أو بغيره ؟

لا ننكر أن فرحتنا بانتخاب رئيس جديد للجمهورية ستكون كبيرة ، ولكن خيبتنا ستكون بلا ريب أكبر . ذلك لأن أحداً منا لن يجد في شخصه تفسيراً أو تبريراً لكل العناء الذي تحمّلنا وكل الأخطاء التي تقبلنا . هذا إلا إذا جاءت مع الشخص رؤية وفاقية إنقاذية تضمن للإنسان حقوقه في وطنه ، وتعيد للوطن وحدته وللمجتمع استقراره ، وهذا ما نتطلع إليه ونراهن عليه .

\*\*\*\*\*

قلنا سابقاً ونقول اليوم : هذه الأزمة سوف تنتهي ، بأيّ أزمة في التاريخ لم تنته ؟

هذه الأزمة سوف تنتهي وتصبح أحداثها ، كما قبائحها وترهاتها ، في ذمة التاريخ . ولسوف تنتهي على ما نؤمن به من قيم وطنية وإنسانية ، لأن أحداً لا يملك بديلاً .

وإذا كان عمر الأزمة قد طال ، فلأن المؤامرات التي يتحدثون عنها كلها فشلت . ولو نجحت واحدة منها لانتهدت الأزمة على ما خطط المتآمرون .

سنخرج من الأزمة وقد تحررت أرض لبنان من الإحتلال الإسرائيلي .  
وها هم أبطال المفداء يشهدون بأن إرادة المقاومة عند اللبنانيين لا تُقهر .

وسنخرج من المحنة وقد سلمت حرية الإنسان في لبنان . وها هم  
الشرفاء الصامدون في المصنع والمتجر والمكتب ، في المدرسة والجامعة  
والمستشفى ، في الحقل والمرفاً والمشغل ، يشهدون بأن لبنان بخير ما دام  
الإنسان فيه بخير .

وسنخرج من المأزق ووحدة لبنان في حرز أمين . فليس أدهى من  
استمرار الأزمة سوى انتهائها على حساب وحدة الوطن . فنحن لا نقتد لبنان  
بتقطيع أوصاله . وسيان إذا جاء تفتيت وطننا مباشرة من خلال صيغة تقسيمية  
أو مداورة من خلال صيغة لامركزية أو فدرالية . ونحن نعلم أن لا نهاية  
للحرب بتقسيم لبنان ، لا بل إننا نجزم بأن أي مشروع لتقسيم لبنان سيكون  
من شأنه ليس إنهاء الحرب وإنما تبديل وجهها من صراع على الصيغة إلى حرب  
على الحدود . فأى مشروع لقسمة أرض الوطن الواحد ، في ظل الإختلاط  
السكاني الكثيف الذي صمد برغم موجات التهجير الجماعي التي رافقت  
الأحداث ، سيكون سبباً لتفجير نزاعات لا نهاية لها حول الحي والشارع في  
المدينة ، وحول التلة والطريق والقرية في كل منطقة . لذا قولنا المتكرر: إذا  
كان توحيد لبنان صعباً فتقسيمه مستحيل . واستحالة تقسيم لبنان تجعل  
الإصرار عليه بمثابة السير في زج هذا البلد في حرب المائة سنة .

وسنخرج من المحنة وقد تثبت حق الإنسان في وطنه : حقه في الحرية  
والمساواة والعدالة . ذلك لأن التمييز مرادف للظلم ، والظلم يجافي الإستقرار  
والسلام .

ولسوف نخرج من المحنة وقد سلمت عروبة لبنان ، وترسخت علاقاته  
الأخوية مع أقرب الأقربين إليه ، سوريا .

\*\*\*\*\*

عهداً لك علينا يا لبنان في عيدك أن نبذل كل غالٍ ونفيس حتى تستعيد  
وحدتك وعافيتك ، وتستأنف مسار نموك والعطاء ، ويسترد الإنسان على  
أرضك كرامته وحيويته ، وثقته وعبقريته .

١٩٨٨/١١/٢٢